



الدور الثقافي والأدبي في فكر "محمد إسعاف النشاشيبي"

اعداد

ابتسام زحيكة

مكتبة جمعية الدراسات العربية

القدس

بحث مقدم

للندوة الثالثة عشرة لاتحاد جمعيات مكتبات بلاد الشام

جامعة النجاح الوطنية بتاريخ 2009/12/3

نابلس - فلسطين

المخلص:

كانت مدينة القدس على مدى تاريخها معلماً حضارياً مشعاً ومنازة أشرفت أنوارها على كافة أنحاء المعمورة.

لقد أنشأ المسلمون فيها بيئة ثقافية رائدة تأصلت في علمائها وأدبائها فقدموا إبداعاتهم العلمية، فكانت عاملاً في تقدم العلوم والفنون والأدب وغيره على مر السنين.

من معاهد بيت المقدس تخرج المئات من العلماء والأدباء والفلاسفة والمهندسين والأطباء وغيرهم ممن اثروا الفكر الإنساني بإنجازاتهم، وقدموا للحضارة الإنسانية من الروائع التي ستظل خالدة مع الأيام.

أقدم في هذه العجالة دور وإنجازات علم من علماء الفكر الإنساني محمد اسعاف النشاشيبي الذي ارتبط اسمه ببيت المقدس فكراً وثقافة وتعصبا لوطنه ولغته العربية وقد لعب النشاشيبي دوراً في توثيق المعلومات الثقافية والحضارية في مدينة القدس وفلسطين.

مقدمة:

ولد محمد إسعاف النشاشيبي كما أورد العودات (1) في القدس عام 1882 وتوفي في القاهرة عام 1948/1/22 لأسرة عريقة كان جدها الأول أحد رجال الملك الظاهر. عاش في فلسطين ولبنان وسوريا والقاهرة. التحق بكتاتيب القدس ثم انتقل الى بيروت للدراسة في "دار الحكمة" حيث مكث أربع سنوات، وقد تتلمذ على يد كبار شيوخ الكتاتيب بالقدس وتأثر بأساتذته عبد الله البستاني ومحبي الدين الخياط الذين أوروته عشق الأدب القديم والعناية بغريب الألفاظ والشغف باللغة العربية وأسرارها وألفاظها وأساليبها. اهتم بحضوره المجالس الأدبية التي كانت تعقد في قصر العائلة بالقدس القديمة التي كان يحضرها الأدباء والشعراء ليتذكروا الأدب والفقهاء وكان شغوفاً بالاطلاع على خزائن كتب شيوخ القدس وعلمائها. درس في دار الحكمة في بيروت وأمضى فيها أربع سنوات. وتأثر كذلك بالشيخ مصطفى الغلايني حيث كان يحضر الحلقات التي كان يعقدها الغلايني في تدريس اللغة العربية والصرف والنحو والفقهاء. نال جدارته الثقافية بسعة إطلاعه وقد تبلورت في بيروت شخصيته الأدبية، د زامل شكيب أرسلان وبشارة الخوري وغيرهم، تعلق بالأدب منذ صباه، فقرأ كتب التراث، وشغف ببديع الزمان الهمذاني، فكانه أصدقائه "أبا الفضل" (2) ، وأعجب بالمتنبي وقال فيه "إن المتنبي شخص ثالث بين كل متقنين اثنين كان واسع الاطلاع، ومكتبته لا تشبهها مكتبة، وكانت مجالسه أجمل المجالس لم يلقه أحد إلا استفاد منه - وكان يطلب العلم لأجل العلم، وكان أستاذ نفسه، مندفعاً في سبيل إحياء أمجاد العرب وتراث الإسلام.

عمل إسعاف أستاذاً للأدب العربي في "الصلاحية" بالقدس، إبان الحرب العالمية الأولى، ثم عمل في معارف حكومة فلسطين في عهد الانتداب البريطاني، حيث عين مديراً للمدرسة الرشيدية عام 1918م وما لبث أن رقي الى منصب مفتش للغة العربية في مدارس فلسطين، واستقال سنة 1930م وتفرغ لكتبه وأدبه. وقد نشر منتخبات من قراءاته في أوابد كتب التراث، على صفحات مجلة "الرسالة" القاهرية، تحت عنوان "نقل الأديب" استمرت منتظمة منذ عام 1937م حتى عام 1947م.

وعاد إلى الوطن عام 1905. تقلد عدة مناصب وعين أستاذاً للغة العربية في المدرسة الرشيدية بالقدس ثم مديراً للمدرسة، ثم مفتشاً للغة العربية في معارف القدس وبقي فيها لغاية 1929. انتخب النشاشيبي عضواً مؤزراً للمجمع العلمي العربي بدمشق عام 1923، وانضم لعضوية جمعية الأدب التي أنشأها داود الصيداوي.

يقول البيومي(3) في أديب العربية الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي، أنه علامة فلسطين ووارث علم سيبويه والميرد والأصمعي، فتحارُّ من سعة اطلاعه، وتنوع معارفه، وغوصه في المخطوطات، فضلاً عن المطبوعات، ويعتبر من أكثر المثقفين غزارة مادة، وشمول ثقافة، وشدة تنقيب؛ إذ كان الرجل -رحمه الله- موسوعة علمية تنطق بما ضمت من الذخائر والكنوز.

انجازات النشاشيبي الأدبية:

كان النشاشيبي في نشأته الأدبية الأولى حريصاً على قراءة المجلات الأدبية الرصينة، وكانت مجلة الرسالة في طليعة المجلات التي طالعتها وكتب فيها لما حوتها من علم دقيق، وأدب صافي، وفناً رفيعاً، فكان يكتب البحوث الأدبية المتسلسلة الحلقات والتي تمتاز ببعده الغور، ونفاذ النظر، وبراعة النقد، ولكن صاحبنا لا يعلن عن اسمه، وإنما يكتب العنوان في أعلى الصفحة الأولى من المقال منسويماً إلى من قال عنه صاحب المجلة "أستاذ جليل"، وتتوالى البحوث المتشعبة لغةً وتاريخاً ونحواً وأدباً ونقداً، والباحث الكبير لا يكشف عن اسمه، بل يدع القراء يتساءلون عن صاحب السطوة العلمية الفذة ولماذا ينكر ذاته.

كانت ينشر نقدات أدبية في مجلات الشام بسوريا وفلسطين ولبنان، ويردُّ على المنقودون بأعنف العبارات أحياناً، فاستشاط والده غضباً وغيظاً؛ لأنَّ ابنه يشتم في الصحف.

اتجه إسعاف النشاشيبي إلى الكتابة والتأليف، شاعر، ناثر، منشيء، محقق، وخطيب. شعره فخم جزل عربي الديباجة والجرس. أبدع في البحث العلمي وله العديد من المؤلفات والكتب والابحاث والمقالات والخطب والمحاضرات، كتب في مجلة النفائس التي أسسها خليل بيدس على مدى تسع سنوات مقال وشعر ونثر. كتب في مجلة المنهل المقدسية وفي العديد من المجلات العربية مثل الرسالة القاهرية، البلاغ، اللواء المصري، الأخبار، السياسة، كوكب الشرق المقتطف وغيرها. كتب في مجلة الأصمعي التي أصدرها حنا العيسى وشاركه فيها خليل السكاكيني.

أثار النشاشيبي :

1. كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه (القدس، 1916م).
2. قلب عربي وعقل أوروبي (القدس، 1924م).
3. البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي والشاعر الخالد أحمد شوقي (القدس، 1932م).
4. مقام إبراهيم / خطبة ألقاها في حفل تأبين الزعيم السوري إبراهيم هنانو بدمشق (طبعت في كتيّب، القدس، 1938م).

5. نقل الأديب / 4 أجزاء (دار الثقافة، بيروت، 1956م).
6. أمالي النشاشيبي / مخطوط.
7. التفاؤل والأثرية في كلام أبي العلاء المعري (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق).
8. بيروت والغلاييني (خطبته التي ألقاها في حفل تأبين الشيخ مصطفى الغلاييني بيروت).
9. الأمة العربية (مخطوط فُقد في القاهرة).
10. حماسة النشاشيبي (مخطوط لا يُعرف مصيره).

كتبه:

أشهر الكتب التي ألفها النشاشيبي هي:

- - الإسلام الصحيح (القدس، 1935م).
- البستان (القاهرة، 1924م ثم 1927م) إكّان مقررًا ككتاب مطالعة في مدارس فلسطين].
- أمثال أبي تمام (1912م). (نشرت تباعاً في مجلس النفائس عام 1912م)
- كلمة في اللغة العربية (القدس، 1925م).
- كتاب المبشرين.

- مجموعة النشاشيبي وهي تضم:

أ- العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي.

ب- اللغة العربية والأستاذ الريحاني.

ت- العربية في المدرسة (طبعت المجموعة في مصر عام 1928م).

مقالات النشاشيبي:

بدأ النشاشيبي رحلته مع الادب على أن يكون شاعرا مشهورا ذائع الصييط، ولكنه وجد نفسه في النثر نتيجة تفاعل رغبته في القراءة وتوفر الكتب لديه، فنتج عن هذا التفاعل كما بين الحسيني (4) ثقافة ذاتية واسعة بالاضافة الى معرفته باللغات الأجنبية الفرنسية والإنجليزية. نشر النشاشيبي عدة مقالات في مجلة الرسالة أهمها:

- أحمد شوقي والرافعي في النحو.
- قصة الكلمة المترجمة، وغيرها.

خطبه:

تميزت المواقف الخطابية لأديب العربية الناشيبي بمزايا عجيبة وقد سرد لنا الخواجا وأبو صالح (5) ما ذكرته جريدة السياسة المصرية في معرض تعليقها على خطب الناشيبي حيث كتبت: يخيل إليك حين تسمع هذا الصوت المليء، وهذه النبرات الملتهبة وهذه اللهجة الجزلة الفصحى انك تستمع الى رجل من أساطير العربية في عهدها الاول، فقد لفتت خطبة أنظار محبي البحث والدراسة واهل الفضل والأدب، وفرضت عليه الظروف السياسية الصعبة والاحتلال شجاعة لن تجدها في شخص آخر فقد القى عدة خطب في عدة مناسبات متعددة عبر فيها عن وطنية صادقة أهمها:

- العربية في المدرسة: خطبة القاهرة في مؤتمر مدراء المدارس في معارف فلسطين.
- العراق في سبيل الحرية.
- العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي.
- مقام إبراهيم.
- بيروت والغلاييني: الحفلة التكريمية للغلاييني.
- البطل خالد صلاح الدين والشارع خالد أحمد شوقي.

محاضراته:

تواصل الناشيبي مع جمهوره من خلال الجامعات والكليات التي دعتة للتعبير عن فكره وكان أشهر محاضراته:

- قلب عربي وعقل أوروبي: محاضرة ألقاها في الجامعة العربية في بيروت.
- سيرة العلم وسيرتنا معه: ألقاها في الكلية الصلاحية بالقدس.

مخطوطات كتبها وفقدت:

تعرضت مكتبة الناشيبي للنهب والسلب على ايدي عصابات الاحتلال التي نقلت مكتبته الى مكتبة الجامعة العبرية بعد احتلال القدس عام 1948 وبهذا تكون القدس قد فقدت واحدة من أهم المكتبات الخاصة والشخصية في تلك الحقبة وفقد الناشيبي أهم كتبه ومخطوطاته التي كتبها وفقدت وأهمها:

- الأمة العربية.
- حماسة الناشيبي.
- جنة عدن.

اللغة العربية في فكر محمد إسعاف النشاشيبي:

لقد بين جبر (6) في إحدى أبحاثه مدى عشق إسعاف للغة العربية على حد قوله أنه يرى الله من خلالها، أنه يرى قرآن الله وشريعته السامية والراقية والمدهشة والساحرة، ويقول إسعاف أيضاً اللغة هي الأمة والأمة هي اللغة فكان غيرواً على اللغة العربية وشغوفاً بآدابها ومتعصباً لها، تحدث عن العربية بإعجاب وتقدير وحماس وحب ومن أقواله (7) "اللغة هي الأمة والأمة هي اللغة، واللغة العربية هي اللغة المحمدية، إنها لغة العرب، هي لغة القرآن، إنها الاتقان متقناً، إنها الإبداع خالقاً مبدعاً، إنها صنع اللع وإنها لغة القرآن".

لقد عرض محمد إسعاف في كتابه "كلمة في اللغة العربية" العديد من القضايا التي ركزت في جانب منها على حاضر اللغة العربية وتصدى لانتقيد آراء المنتقدين لملائمتها للعصر تحت عنوان التقدم ونبذ الجمود والتخلف.

المفهوم من كتاباته أيضاً أنه التزم بالدعوة إلى الاستفادة من التقدم العلمي في الغرب. لقد لخص إسعاف طريقته ومنهجيته في ترقية اللغة العربية والتي تقوم على اختيار النصوص من القرآن الكريم والحديث والخطب البليغة والقطع النثرية الجميلة ثم قراءتها للطلبة بفهم ومتعة ومن ثم التعليق على المفردات بشكل يكشف أسرار الألفاظ ودلالاتها العجيبة الدقيقة ثم تكليف الطلبة بالحفظ وسماعه ما حفظوه.

كان يؤمن بتجديد اللغة ولكنه التجديد الذي يحفظ اللغة من كل ما يؤدي إلى إفسادها أو اضمحلالها ويرى التجديد تنمية وتطور للحضارة من جانبها الأدبي واللغوي فلا تقضي على اللغة وتعتمد اللغة العامية أو تلغي القافية بدعوة حرية الشعر وتجديده.

إن كتابات محمد إسعاف أنه ملتزم بالدعوة إلى الاستفادة من التقدم العلمي في الغرب. إن إسعاف اخلص حياته للأدب والكتابة والقراءة، لقد قال عنه معاصروه أنه وعاء من أوعية الأدب، وقال أحمد حسن الزيات: إن النشاشيبي كان خاتم طبقة من الأدباء اللغويين. لقد أمضى حياته باحثاً ومنقياً في كنوز التراث والأدب العربي وكان أديب العربية لكل جدارة واستحقاق.

كما لم تغب قضية وطنه عن فكره وأدبه فكان حريصاً جداً، لقد دعا إلى ربط القدس بكل العواصم العربية لأن عزلتها أو انقطاعها سيؤدي إلى موتها.

لقد كان محمد إسعاف يكره أحزاب فلسطين العائلية ويراهم إهداراً لطاقت الوطن، فلم ينضم إسعاف لأي حزب وكره لبس "الطربوش"، وهو العلامة المميزة لآل النشاشيبي حزب الدفاع، وكما كره لبس الكوفية وذلك لأنه علامة الهيئة الموالية لآل الحسيني فكان يضع على رأسه شاشة بيضاء مبرومة على الرأس كالعمامة رغم ذلك لقد ربطته صداقة حميمة ما الحاج أمين الحسيني.

من آثار إسعاف النشاشيبي التراثية والأدبية:

لقد ترك لنا إسعاف النشاشيبي إرثاً ثقافياً وحضارياً تفخر به الأجيال على مدى السنين. لقد شيد إسعاف النشاشيبي بناء مسمى قصر إسعاف النشاشيبي عام 1922، في أجمل بقعة في القدس الشريف "منطقة الشيخ جراح" وهي أرقى منطقة في القدس، وبناء بمواصفات تراثية جميلة جداً، حجارتها الوردية وشرفاته الجميلة وشبابيكه الكبيرة وزينه بالفسيفساء مما زاده جمالاً، وكما تحيطه حديقة جميلة جداً، وكما اعتنى بأثاثه الفاخر، فكان يؤمه نخبة من الأدباء والعلماء وأعلام الفكر والسياسة والاجتماع وتقام به الاجتماعات الأدبية والشعرية وتؤمه من فلسطين والدول العربية أمثال خليل السكاكيني وعبد الكريم الكرمي، وإبراهيم طوقان والشيخ حسام الدين جار الله وغيرهم، فاهتم إسعاف النشاشيبي بجمع الكتب وشرائها واقتناء الكثير من الكتب النادرة من التراث واللغة العربية وكما أهديت له الكثير من مكنتبات بعض الأدباء أمثال عارف العارف واسحق الحسيني وكما جمع واشترى الكثير من المخطوطات والوثائق النادرة لبعض العائلات المقدسية.

لقد مر هذا الصرح بعدة ظروف ولكن في عام 1982 دخل بحوزة مؤسسة دار الطفل العربي حيث أسس فيه اسحق الحسيني مركزاً للأبحاث الإسلامية عام 1986 وصدر عنه عدة أبحاث تراثية وفكرية وتم تأسيس مكتبة إضافة إلى مؤلفات وكتب إسعاف النشاشيبي وما تبقى من الكتب والمخطوطات والوثائق التي كانت قد جمعت أثناء حياة إسعاف النشاشيبي عام 1999، أعيد افتتاح القصر مرة أخرى فهي مقر للدارسين والباحثين وكما تقام فيه المحاضرات والندوات والمعارض الفنية.

ويقع شمال القصر قصر آخر للكاتب العربي ناصر الدين النشاشيبي وقد أبدى اهتماماً بقصر خاله إسعاف ويزوده بالكتب بين الفينة والأخرى وقد أوصى بتقديم عشرات الآلاف من كتبه هدية للدار بعد وفاته.

توجد في القصر مكتبة رئيسية تضم حوالي 8000 كتاب وتشمل مكنتبات عدد من مشاهير القدس، وقد شكلت مجموعة نفيسة من كتب الدكتور اسحق الحسني عند تأسيسها عام 1986 بالإضافة إلى 250 كتاباً من مخلفاته أهداها نجله للدار عام 2002 وكان ناصر الدين النشاشيبي قد زود الدار عام 1991 مجموعة قيمة تضم كتاباً من التراث واللغة والمعاجم حوالي 300 كتاب وتضم أيضاً مجموعة محمد يونس الحسيني كتباً تراثية هامة يبلغ عددها 470 كتاباً، وفي عام 2003 تم استلام مجموعة أخرى من مكتبة اسحق درويش بلغ عددها 140 كتاباً، ومجموعة أخرى من مكتبة فريد كاظم الحسيني بلغ عددها 1700 كتاب، ومكتبة فوزي يوسف التي تبرع بها أبناؤه عام 2001 تبلغ عددها 2200 كتاب وكما تحتوي الدار على مجموعة نفيسة من المخطوطات الإسلامية أهداها اسحق الحسيني ووجيهاة الحسيني

أرملة الشهيد عبد القادر الحسيني وقد تم إعداد فهرس تفصيلي بمحتوياتها عام 2000 وذلك حفاظاً لها من التسرب والضياع.

لا شك أن قصر أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي هو صرح شامخ في مدينة القدس التي أحبها ويحبها الملايين وكما أن إسعاف النشاشيبي علم من أعلام القدس الثقافية والأدبية الذين لعبوا دوراً هاماً ورائداً في إثراء مدينة القدس إرث يستحق الفخر به على مر الأجيال.

المراجع

1. العودات, يعقوب، **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**، القدس : دار الاسراء 1992.ص.ص 626- 628
2. اسعاف النشاشيبي، ديوان العرب: مجلة فكرية ثقافية اجتماعية ، ع تشرين الثاني، ٢٠٠٩ .
<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2108> (تاريخ: ١٧ نيسان ٢٠٠٥)
3. البيومي, محمد رجب, **من أعلام العصر: كيف عرفت هؤلاء** ، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1996.ص.ص 37-43.
4. الحسيني, خليل محمد. **إسعاف النشاشيبي أديباً وكاتباً**. القدس: مطبعة المعارف, 1987.ص. ص 89- 91
5. خواجا، ابراهيم و وائل ابو صالح. **فن الخطابة عند اسعاف**. القدس: مطبعة المعارف، 1987. ص 109
6. جبر, يحي. **محمد إسعاف النشاشيبي 1885- 1948** : الموسوعة التربوية الفلسطينية، نابلس: مكتبة الجمعية العلمية، 1994. ص.ص 1-23.
7. الناشف, تيسير. **مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين**. ط3. يافة الناصرة، ص. 22.
8. بشير، بركات. "قصر أديب العربية : محمد إسعاف النشاشيبي". **البيادر السياسي، ع . 845** .
<http://www.al-bayader.com/index.asp?cat=26&issue=845> ، لإنترنت:
بتاريخ (2009/11/19) .